

# الحجاج الحوارى بىن الله وإبليس فى النص القرآنى: قراءة منطقىة برهانية

د. دعد رشاش الناصر \*

E-mail: d.daadnaser@gmail.com

\* قسم اللغة العربىة - جامعة الإمارات - منطقة العين - الإمارات العربىة المتحدة.

# الحجاج الحوارى بين الله وإبليس فى النص القرآنى: قراءة منطقية برهانية

د. دعد رشاش الناصر

## الملخص:

على ضوء نظرية الحجاج بتمثلاتها المنطقية، وأدواتها اللغوية، وبرهنتها النفسية، قام البحث الموسوم بـ «الحجاج الحوارى بين الله وإبليس فى النص القرآنى: قراءة منطقية برهانية».

يجلى العنوان النصيات المركزية المعنية بالدراسة، وهى تلك السياقات الكريمة التى برز فيها حوار الله وإبليس حول تيمة السجود لأبى البشر - عليه السلام - فى أربعة سور هى: الأعراف، والحجر، والإسراء، و ص. وهى حوارات قامت ابتداء على الجدل والحجاج؛ إذ انفردت فيها رؤيتان متغايرتان إيمانية وإشراكية، وقد تغيا النص القرآنى إثبات صوابية الحق المطلق للمتلقى الكونى الذى ننضوي تحته بالضرورة، إضافة للمتلقى الداخلى الذى شكلته الملائكة، وبالضرورة آدم المسجود له، وإبليس الذى أبى!. وقد كان الحجاج هذا حجاجاً نواة إذ تبنى إبليس الكفر الأول، وهذا ما يدعو إلى القول إن المنطق الحجاجى القرآنى بعامه مستتير بهذا المنطق المؤسس؛ ممّا يجعل دراسته غاية فى الأهمية.

وبتراتبية ثانية تناول البحث السرديات التى قصّت السجود وهى كذلك فى سور أربعة: البقرة، والنساء، والكهف، وطه. وأخيراً، ولغايات البرهنة النفسية استُجليت صورة إبليس فى القرآن الكريم بعامه.

قدّم البحث تمهيداً تناول فيه المهاد التاريخى والمعريف لنظريات الحجاج، ثم عنوانات مركزية فصلت النظر المنطقى فى النصيات الكريمة محل الدرس هى: أساليب الإقناع، واندراج تحتها: المقدمات الحجاجية، والبرهان بالخلف، والمفارقة والإحراج، والسلم الحجاجى. ثم حجاجية اللغة، ثم حجاجية القصة، ثم الحجاج والتصوير النفسى. وأخيراً، ختم البحث بخاتمة كثفت أبرز النتائج.

مصطلحات أساسية: الحجاج / دراسة منطقية / دراسة برهانية .

## The Dialogical Argumentation between Allah and Iblis in the Quranic Text: A Logical Demonstrative Reading

Dr. Daad Al-Naser

### **Abstract:**

This research 'The Dialogical Argumentation between Allah and Iblis in the Quranic Text: A Logical Demonstrative Reading' came in the light of the argumentation theory with its logical representations, linguistic instruments and psychological demonstration.

The topic displays the central textualities of the study embodied in the holy contexts where the dialogue between Allah and Iblis was presented regarding the theme of prostrating before Adam in four sites: Al-Araf, Al-Hijr, Al-Isra and Sad. These dialogues commenced with debate and argument where two adversary visions of faith and infidelity were distinguished.

The holy text aimed to demonstrate the appositeness of the absolute truth for the cosmic recipient under which we are necessarily joined beside the explicit recipient that was represented by Angels, Adam the prostrated to and Iblis who refused to prostrate.

This argumentation was a nucleus out of which Iblis launched the first infidelity. This leads to state that the Quranic argumentative logic in general is guided by this core logic, the study of which is of considerable significance. In another sequence, the research studied the narratives that recounted the prostration story in four sites also: Al-Baqarah, Al-Nisaa, Al-Kahf and Taha. The image of Iblis in the holy text The research was prefaced with the historical and epistemological background of the argumentation theories, then with essential topics discussing the logical consideration of the holy texts in question. These topics are first: Conviction methods including argumentative premises, reductio proof, dilemma, paradox and argumentation scale. Second: linguistic argumentation. Third: narrative argumentation. Forth: Argumentation and Psychological.

The research was concluded with the main finding.

---

**Keywords:** Argumentation, A Logical, Demonstrative Reading.

## المقدمة:

يشغل البحث الموسوم بـ «الحجاج الحواري بين الله وإبليس في النص القرآني: قراءة منطقية برهانية» في حقل نظرية لسانية حديثة هي الحجاج، ستكون آلة النظر في نصوص القرآن الكريم التي احتوت حوارا بين الله - جل شأنه - وإبليس في تيمة السجود لآدم - عليه السلام - وهي أربع مواضع مركزية جاءت في:

الأعراف (18-11)، والحجر (45-27)، والإسراء (65-61)، ووص (85-71).

وبراتبية ثانية يستثمر البحث النصوص الكريمة الساردة لموضوع السجود دون حضور حوارية حجاجية فيها، وهي كذلك أربعة: البقرة (34)، والنساء (120-118)، والكهف (50)، وطه (116)، ثم ولغايات البرهنة النفسية يقف البحث على تجليات صورة إبليس في النص القرآني تماما.

يهدف البحث إلى تعميق النظر للحجاج القرآني من زاوية النظرية، دون أن يضحى بالسمات الأسلوبية الخاصة التي تميزه فكرا وأداء جماليا، من منطلق أن النص القرآني نص حجاجي ومتعال، جاء في نسيج ثقافة مضادة أفرزت بالضرورة تباينا فكريا كان يجب أن يكون على محك الحجاج؛ استهدافا لاستجلاء الصواب المطلق الذي يقف في جانب النص القرآني، وهذا يؤدي إلى فرضيات البحث الآتية:

- يشكّل إبليس في الوجدان الإسلامي الكفر الأول المضاد للإيمان، لذا فإن حجة كفره ستكون باطلة/ بحث في البطلان.

- والله - جل شأنه - الحق المطلق، لذلك فإن حجاجه إبليس سيكون حقا مطلقا/ بحث في الصوابية.

- انسياقا مع أداء القرآن الكريم الحجاجي في استفزاز العقل والروح، عبر وسيط لغوي له تشكلاته الخاصة، سيعمد الحجاج موضوع النقاش لمثل هذه الاستثمارات / بحث في الأدوات والآليات.

ولعل قيمة البحث متأتية من كون هذا الجدل الحجاجي الكوني ساعده الأول، فلم يسبق حجاج إبليس لله سبحانه حجاج، ولذا حجاجا نواة، لا بد أن يوجه فكرنا، ويشكل زاوية خاصة حين النظر في الحجاج القرآني بعامة، لا سيما أن تجليات هذا الحجاج اسقطت علينا نحن المتلقين الكونيين الخارجين عن سياق الحكاية الأم/ الحجاج الأول، فقد استهدفت ذرية آدم بالإفساد والإغواء منذ تم الحجاج وإلى يوم الدين.

جاء البحث في تمهيد تناول الحجاج في ابتداءات التأصيل له في جدل الخطابة لدى أرسطو Aristotle، ثم باستقلاله مبحثا فلسفيا مستويا لدى بيرلمان وتيتكا Perelman & Tyteca، وامتداده في البحث الدلالي اللساني عند اوسكمبر وديكرو Ansbrombe & Ducrot الذي طوّر السلم الحجاجي، ثم ماير Mayer المشتغل أساسا في نظرية المسألة الحجاجية. ثم العنوانات المركزية الآتية:

- أساليب الإقناع: وتضم المقدمات الحجاجية، والبرهان بالخلف، والمفارقة والإحراج، والسلم الحجاجي.
- حجاجية اللغة.
- حجاجية القصة.
- الحجاج والتصوير النفسي.
- خاتمة كثفت أبرز النتائج المتوصل إليها.

## التمهيد:

لازم المنطق الحجاجي المشتغل في بيئاته اللغوية، وسياقاته السوسولوجية العامة خطاب الإنسان منذ القدم، منساقا بذلك لطبيعة الإنسان الجدلة، ومشروعية خلافه مع الآخر، مما استلزم بالضرورة تطوير تقنيات لغوية ومعرفية عقلية، تحاول إثبات الذات بإثبات حجتها، وغلبة الآخر بكسر معطياته الحجاجية. ولذلك سنلغوي، فقد أورد ابن منظور معاني البرهان، والدليل، والغلبة والانتصار على

- بعد اللغة/ المقول، من حيث قدرته على الإثبات، ويمكن تسميته بحجة اللوجوس Logos.

وهي أركان معتد بها ستجد صدى لها في النظريات الحديثة. وإن استوى الحجاج فيها بوصفه مبحثاً فلسفياً ولغوياً مستقلاً عن صناعة الجدل والخطابة، فقد أحدثت مدرسة البلاغة البرهانية<sup>(6)</sup> ممثلة في أبرز روادها بيرلمان وتيتكا Perelman & Tyteca فتحاً في حقل الحجاج، إذ قدما طروحات من نسيج البلاغة المعاصرة مهتمة أساساً بأساليب إجراء اللغة، وتنويعات الخطاب ومقاماته. عرّف الرائدان الحجاج في عدة مواضع من كتابهما «مصنف في الحجاج»: «موضوع نظرية الحجاج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم»<sup>(7)</sup>. أما غايته فهي أن: «يجعل العقول تدعن لما يطرح عليها من آراء، أو أن تزيد في درجة ذلك الإذعان»<sup>(7)</sup>.

وقد تميز الحجاج في تصور بيرلمان Perelman بخمسة ملامح هي<sup>(8)</sup>:

- يتوجه إلى مستمع.
- يعبر عنه بلغة طبيعية.
- مسلماته لا تعدو أن تكون اجتماعية.
- لا يفتقر تناميها إلى ضرورة منطقية.
- نتائجها ليست ملزمة.

يؤثر لبيرلمان Perelman تمييزه لمستويين حجائين هما<sup>(9)</sup>:

- الحجاج الإقناعي، وهدفه إقناع الجمهور الخاص، وهو حقل تُثار فيه صور الخيال والعاطفة.

- الحجاج الإقناعي، يقوم على العقل، ويستهدف تحقيق القناعة العقلية لدى المتلقي.

ذلك يعني أن بيرلمان Perelman أولى اهتماماً

الخصم متعاقبة مع الجذر «حجج»، ومن ذلك: «ومن أمثال العرب: لَجَّ فحجَّ، معناه: لَجَّ فغلب من لَجَّه بحججه، يقال: حاججته أحاجَّه حجاجاً ومحاَجَّةً حتى حججته، أي: غلبته بالحجج التي أدليتُ بها... والحجَّة: البرهان، وقيل: الحجَّة: ما دفع به الخصم. وقال الأزهري: الحجَّة: الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة. وهو رجل محجاج: أي جدل. والتجاج: التخاصم، وجمع الحجة: حجج وحجاج... قال الأزهري: إنما سميت حُجَّةً لأنها تحجَّ، أي: تُقصد لأن القصد لها وإليها، وكذلك محجة الطريق هي المقصد والمسلك<sup>(4)</sup>. وهي معانٍ ستصاحب البحث في تأصيل الحجاج، والدراسة التطبيقية؛ لأنها مركزية لا يتم الحجاج دونها، أي: دون أدلة يبادل بها الخصم خصمه لغاية إقناعه وغلبته.

في المهاد التاريخي كان أرسطو Aristotle أول من أقام الجدل/ الديالكتيك - من الفعل اليوناني ويعني: يحاور- على أساس علمي في كتابه «الطوبيقا»، وهو كتاب موجز كتب أغلبه قبل أن يستكشف القياس، مستهدفاً بكتابه أن يجد من البراهين ما يؤيد به، أو يدحض ما يطرح للبحث من آراء أو دعاوى<sup>(2)</sup>. وفي الدرس البلاغي، جعل أرسطو Aristotle البناء البلاغي للخطاب مرتكزاً على أسس تستهدف الإقناع هي: اختيار الحجج، ثم تنظيمها، ثم سبكها في عبارة، ثم ترتيبها في الذاكرة، ثم إلقاؤها شفويًا<sup>(3)</sup>. وعُرِّفت الحجة في موسوعة لالاند Laland بكونها الـ«الاستدلال يرمي إلى برهان قضية معينة أو دحضها»، والمحاجة هي: مسرد حجج تنزع كلها إلى الخلاصة ذاتها. أو هي: طريقة عرض الحجج وترتيبها<sup>(4)</sup>.

وقف أرسطو Aristotle على الإقناع في مؤلفه «الخطابة»، وارتأى أنه يقوم على أركان ثلاثة تتمحور حول<sup>(5)</sup>:

- بُعد أخلاقي يلتزم به القائل، ويمكن تسميته بحجة الايتوس Etos.

- عد مؤثر في حالة السامع النفسية، ويمكن تسميته بحجة الباتوس Patos.

- قانون الخفض: وفيه إذا صدق القول في مراتب معينة من السلم، فإن نقيضه يصدق في المراتب التي تحتها.

في اشتغال ماير<sup>(13)</sup> Mayer على الحجاج تطوير لنظرية المساءلة، فالحجة عنده جواب أو وجهة نظر يُجاب به عن سؤال ما متلقً صريحاً أو ضمناً، وما السؤال إلا المشكلة التي تتطلب حلاً، وحلها يكمن في الإجابة عنها بالضرورة، ويكون المتلقي حتى الخارجي وهو يقرأ الحجج الصريحة أو الأجوبة في خطاب ما، طارح أسئلة بدوره، ويستنتجها كذلك ضمناً من خلال تلك الأجوبة المقدمة في النص مستعينا بالمعطيات التي يوفرها المقام.

\*\*\*

إن طبيعة النص القرآني الحجاجية المتوجهة للمتلقى الخارجي الكوني، والداخلي بكل أطيافه في عالمي الإنس والجن، تسمح بتمرير معطيات النظرية على نص القرآن؛ لفهمه بألية منطقية لا تضيع ملامحه الخاصة وأسلوبه الذاتية، بقدر ما تحاول إدراكها وترسيم أطرها العامة المنساقه لفكرة مركزية الرؤية الإسلامية القائمة على التوحيد بدرجة أولى، وإذ سلمنا بذلك لمنطق القرآن الكريم عموماً، فإن انسحابه على الجزء الحوارية بين الله - جل شأنه - وإبليس صار ممكناً بل واجباً كونه الحجاج الكوني الأول، مما يغري بالدرس والوقوف على الأبعاد الحجاجية بالتفصيل، في محاولة لفهم طبيعة الحجاج في نص القرآن الكريم.

وكان لزاماً عليّ توسيع القراءة لتشمل الخطاب التفسيري لا التأويلي<sup>(14)</sup> المتعلق بالنصوص محل الدراسة، وإن كان خطاب حاشية على متن مما يجعله تراتبياً من الدرجة الثانية، لكنه الخطاب الموصل أبداً بالنص المركزي لا ينفك عنه بنية وتصورا، إذ ستفضي العديد من الإشارات النقلية إلى إدراك آفاق النصوص إدراكاً أوسع، قد يمكن من تأويلها في دراسات آخر<sup>(15)</sup>. وهو الخطاب المحتضن من قبل الثقافة العربية الإسلامية المضادة للثقافة الجاهلية

خاصة لعلاقة البرهنة بالأطر النفسية، عاداً طرق صياغة الفرضيات وما يدور في فلكها من أساليب الدفع إلى الفعل، كلها في جوهرها أمور نفسية.

في السبعينات من القرن الماضي، طوّر اللغوي الفرنسي ديكرودucrot 1973م النظرية اللسانية<sup>(10)</sup> القائمة على الوسائل اللغوية، وإمكاناتها الطبيعية في تحقيق بعض الأهداف الحجاجية، منطلقاً من الفكرة الشائعة التي مؤداها: إننا نتكلم عامة بقصد التأثير. وقد ألف مع أوسكمبرAnscombre مؤلفاً مشتركاً هو «الحجاج في اللغة»، اعترف فيه ديكرودucrot أساسياً بانطلاقه من اللغة، وانتماءه إلى التداولية اللسانية بعيداً عما يمكن أن ينطوي عليه الخطاب من بنى شبه منطقية أو شكلية أو رياضية، كما هو الحال عند بيرلمان وتيتكا Perelman & Tyteca، قال: «أريد بادئ ذي بدء أن أحدد الاختصاص الذي تنتمي إليه أبحاثي، إنه التداولية أو التداولية اللسانية»<sup>(11)</sup>.

طوّر ديكرودucro السلم الحجاجي<sup>(12)</sup> الذي ينظم علاقة تراتبية للحجج المنتمية إلى الفئة ذاتها، بحيث يقدم المحاجج قولاً أو مجموعة أقوال تفضي للتسليم بقول آخر صريحاً أو ضمناً، إذ يتم إنجاز التصريح بالحجة من ناحية، وإقامة الاستنتاج من ناحية أخرى. ويتسم السلم الحجاجي بسمتين مركزيتين هما:

- كل قول يرد في درجة ما من السلم يكون القول الذي يعلوه دليلاً أقوى منه.

- إذا كان القول (ب) يؤدي إلى النتيجة (ن)، فهذا يستلزم أن (ج) أو (د) الذي يعلوه درجة يؤدي إليها، والعكس غير صحيح.

أما قوانين السلم الحجاجي التي أسسها فهي ثلاثة:

- قانون النفي: وفيه إذا كان قول ما يخدم نتيجة، فإن نفيه سيكون حجة لصالح النتيجة المضادة.

- قانون القلب: مفاده أن السلم الحجاجي للأقوال المنفية هو عكس سلم الأقوال الإثباتية.

المتقاطعة بكفرها مع الكفر الأول الذي مثله إبليس، ممّا يجعل إدراك تجليات هذا الحاضن مهمة في الحجاجية المتوجهة للمتلقى الكوني الخارجي خاصة المتلقى الكافر.

### أساليب الإقناع:

توطئة في بنية الحدث:

كشفت الآيات الكريمة التي سردت حواريات إبليس مع الله - جلّ شأنه - سلسلة متوالية من الأحداث، انسربت جزئياتها في السور الشريفة الأربعة لتتقاطع مؤتلفة، مشكّلة الصورة الكلية التي قدّمت الحجاج الأول المتلقى في القرآن. إنها سلسلة حديثة متكاملة في كل موضع على حدة «الأعراف، والحجر، والإسراء، وص» إلا أن النظر إليها من منظور جامع من شأنه أن يرسم الصورة الكاملة بكل إضافاتها، ضمن إطار كلي واحد، سيحقق نفاذية خاصة في الخطاب الذي أراد الله سبحانه تمريره للمتلقى الداخلي والخارجي على حدّ سواء. وكما يقول بلنجر Plunger، فإن الحكيم هو «إقناع بالدرجة الأولى، حتى إذا كان المنطلق إغراء أكثر منه برهاناً»<sup>(16)</sup>. ستنهض السطور الآتية بالوقوف التقريري على الأحداث المركزية التي انتظمت قصة «السجود» لتقف بعد ذلك على منهجية الحجاج فيها، وقد تمظهرت تلك السلسلة مركزياً حسب الآتي:

### إقرار الخلق: وإثباته لذات الله العلية:

فهو الذي خلق البشرية ثم صورها، هكذا بعموم اللفظ، وإن اختار بعض المفسرين أن الآية دلت على المفرد وهو آدم - عليه السلام - في حين عبّرت عنه بلفظ الجمع للتدليل على ما سيكون من ذريته. قال تعالى: «ولقد خلقناكم ثم صورناكم...»<sup>(17)</sup>. قال ابن كثير: «وهذا الذي قررناه هو اختيار ابن جرير: أن المراد بذلك كله آدم - عليه السلام - وقال سفيان الثوري...: خلقوا في أصلاب الرجال، وصوروا في أرحام النساء. -ونقل عن ابن جرير عن بعض السلف- أن المراد بخلقناكم ثم صورناكم:

الذرية»<sup>(18)</sup>. ثم خصص سبحانه في استهلال حوارية الحجر خلق الإنسان، ومن قبله الجان، محمداً العنصر الذي سيكون محلاً للمحاجة: «ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون\* والجان خلقناه من قبل من نار السموم»<sup>(19)</sup>. وفي حوارية ص إشارة زمنية تنضاف إلى حقيقة خلق الإنسان من طين، حيث أعلم الله الملائكة بإرادته العلية المتمثلة في خلق آدم قبل البدء به، وأنه سبحانه سيسويه بيده الكريمة، وينفخ فيه الروح، بكل ما يحيل ذلك لتشريف آدم، وهو سيكون محور المحاجة لاحقاً: «إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين\* فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين»<sup>(20)</sup>. أما في الإسراء فالخلق حاضر على لسان إبليس: «قال أأسجد لمن خلقت طينا»<sup>(21)</sup>، فأثبت الخلق لجلال الله منذ بدء الحجاج.

والانطلاق من الفكر القائل بالتوحيد في هذا الموضوع منساق مع مركزية الثقافة الإسلامية التي تبدأ من كون الله - سبحانه - الواحد لتفرعات العقيدة والحياة وليس العكس، إنها أسلوبيّة القرآن في الدعوة بشكل أساس.

### الأمر بالسجود:

وكان الأمر بالسجود على صورتين: الأولى واقعية، أثبت فيها سبحانه الخلق والتصوير، ثم أمر بالسجود، كذا ورد في الأعراف والإسراء:

- «ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم»<sup>(22)</sup>.

- «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا»<sup>(23)</sup>.

أما الصورة الثانية فقد وردت في الحجر وص، وفيهما ربّ الله - سبحانه - السجود لآدم فور تسويته ونفخ الروح فيه، إثر الإنباء عن إرادة الله بخلقه من صلصال من حمأ مسنون، فهو أمر يستبق واقعة الخلق، هو غيب لما يقع، ممّا يدل على التشريف الزائد لآدم - عليه السلام -:

**الحوار:**

تنتقل الآيات الكريمة من سرد الحدث والحكي عنه، إلى إبرازه بوصفه تلقياً مباشراً لخطاب الله - جل شأنه - من قبل إبليس الذي بدأ في ذروة تمرده، وفي هذه الحوارات المكثفة ستسوق الآيات الكريمة تصدير السؤال عن سببية عدم السجود، فالجواب عنه، وبيان صفار إبليس الذي سيفرز التحدي من قبله، والوعيد من الله. والمواضع الدالة على المذكور هي:

**في مساءلة الله - سبحانه - عن السبب وهو به أعلم:**

- قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك»<sup>(33)</sup>.
- «قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين»<sup>(34)</sup>.
- «قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين»<sup>(35)</sup>.
- وفي الإسراء جواب دل على سؤال مضمرة:
- «.. فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً»<sup>(36)</sup>.
- وفي عرض علة عدم السجود، دوران حول شرف العنصر وخيرية إبليس، في المقايسة التي افترضها حيث النار خير من الطين:
- «أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين»<sup>(37)</sup>.
- «قال لم أكن لأسجد لبشر خلقتة من صلصال من حمأ مسنون»<sup>(38)</sup>.
- «قال أأسجد لمن خلقت طيناً»<sup>(39)</sup>.
- يرتب هذا التكبر والكفر الصريح عقاباً بنقيض القصد؛ فإذ تكبر إبليس على أمر الله سبحانه صورته بصورة الذليل غير المستأهل للتكبر، وجمع عليه سبحانه من تجليات الصورة ما يؤكد صفاره:
- «قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين»<sup>(40)</sup>.

- «فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين»<sup>(24)</sup>.

**جدل التمرد في مقابل الإذعان:**

في لطائف قرآنية أوضح الله - سبحانه - استجابة الملائكة المطلقة لأمر السجود حتى في الموضوعين اللذين استبقا عملية الخلق بالإنبياء عنه، فقد قفزت الآيات الكريمة من زمانية الإنبياء وأجواء الغيب التي ستكشف عن حضور آدم - عليه السلام - إلى زمن واقعي وقفت فيه الملائكة أمام أبي البشر ساجدين لله عبر قبة آدم:

- «.. ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا..»<sup>(25)</sup>.
- «فإذا سويته ونفخت من روحي فقعوا له ساجدين\* فسجد الملائكة كلهم أجمعون»<sup>(26)</sup>.
- «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا..»<sup>(27)</sup>.
- وغير خاف توظيف عطف الفاء الذي يفيد الإذعان المباشر دون تأخير، وتوظيف التأكيد «كلهم أجمعون» لإفادة الإطلاق، فلم يعص من الملائكة أحد. هذا الموقف المنسجم مع طبيعة الملائكة «لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون» قابله موقف ضدي مغاير من إبليس الذي رفض السجود والإذعان لأمر الله، فكان الاستثناء:
- «فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين»<sup>(28)</sup>.
- «إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين»<sup>(29)</sup>.
- «فسجدوا إلا إبليس..»<sup>(30)</sup>.
- «إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين»<sup>(31)</sup>.
- وبغض النظر عن خلاف المفسرين في كون الاستثناء متصلاً أم منقطعاً؛ بناء على خلافهم في شخص إبليس أكان من الملائكة أم من الجن!<sup>(32)</sup> فإن القرآن الكريم يحدد موقفه تماماً إذ لم يكن من زمرة الساجدين، ولا معهم في إذعانهم، مختاراً الكبر والكفر عوض ذلك.



- «قال فاخرج منها فإنك رجيم» وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين»<sup>(41)</sup>.

- «وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين»<sup>(42)</sup>.

وتتواطأ المفردات على تشكيل الصورة المهترئة الدنية لإبليس من بعد كفره: ففي مقابل العلو هبوط، وفي مقابل العزة صغار، وفي مقابل الاستقرار في الجنة خروج، وفي مقابل الحظوة رجم ولعنة.

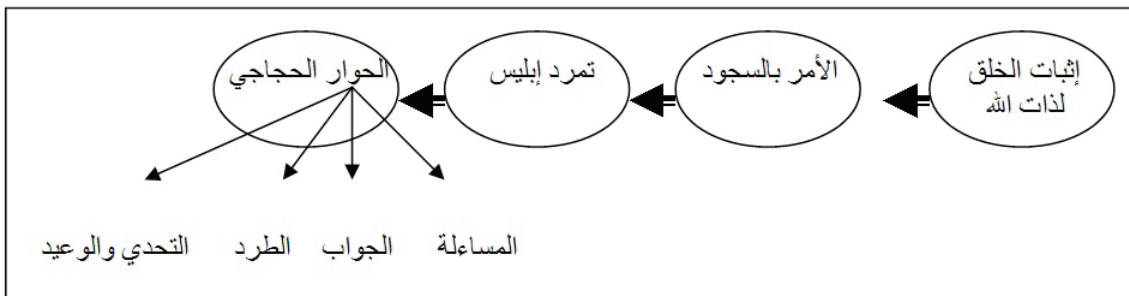
### ثنائية التحدي والوعيد:

إذ لعن إبليس وطُرد من الجنة صاغراً، تحدى الله - سبحانه - بإغواء ذرية آدم، في مشكلة واضحة مع إغواء الله - سبحانه - إياه: «قال فبما أغويتني» وإغواء الله إقصاء لإبليس مسبب بالكفر والاستكبار، أما إغواء إبليس لذرية آدم وإفساد حياتهم فضلال لم يترتب على خطيئة ارتكبوها. وقد رتب الله - سبحانه - وعيدا أزليا لأولئك الغاوين جميعاً:

«قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم* ثم لأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين».	«قال اخرج منها مذووماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين». <sup>(34)</sup>
«قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين* إلا عبادك منهم المخلصين».	«وإن جهنم لموعدهم أجمعين* لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم». <sup>(44)</sup>
«قال رأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتكن ذريته إلا قليلاً».	«قال اذهب فممن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً» <sup>(54)</sup>
«قال فبعزتكم لأغوينهم أجمعين».	«لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين». <sup>(64)</sup>

على ضوء الترتيب السابق، تتوضح المفاصل المركزية المكتنزة بالمنطق الحجاجي، إذ تقابلت رؤيتان متغايرتان في قضية اعتقادية رئيسية، عنوانها المطلق «جدلية الإيمان والكفر» وهي جدلية سترتكز عليها البشرية حتى قيام الساعة، بل تمتد

للخلود الأزلي ولذا طُرحت بوضوح بالغ وحجج بينة أمام المتلقي الداخلي/ مجتمع الملائكة والجن، والخارجي الكوني الذي ننضوي تحته بالضرورة وترسيمة هذه المفاصل كالاتي:



وفي الخبر المذكور سابقا عبّر القرآن عن الحالة الأخيرة بالصلصلة إذ كان إبليس يضرب آدم برجله فيسمع له صوت كأنه الصلصلة<sup>(50)</sup>.

- ستمتد عملية الخلق عبر آدم لذريته كلها، وقد جاء في تفسير قوله تعالى: ولقد خلقناكم ثم صورناكم إشارة لخلق الذرية كلها دفعة واحدة. أورد الترمذي عن أبي هريرة أن الرسول الكريم قال: «لما خلق الله آدم مسح على ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة..»<sup>(51)</sup>.

- وقد استدعت هذه المشاهدة المادية لعملية الخلق إقرارا من إبليس ذاته الذي أثبت الخلق لله - سبحانه - في السور كلها، ففي حوار مع الله لزم هذا الإثبات بسياقات لغوية متعددة: «خلقته من طين»، و«لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون»، و«أأسجد لمن خلقت طينا».

- كذلك، تكون عملية الخلق ثابتة النسبة لله - سبحانه - في وعي إبليس، بل إن علمه بالخلق يمتد لذاته إذ أقر في سور عدة خلق الله إياه من نار، وبذلك يكون الله الخالق المتفرد بالخلق للإنس والجن.

- استدعت هذه المقدمة الكبرى إقرارا آخر قاطعا من إبليس، هو ربوبية الله التي لزمها حتى بعد الطرد من الجنة، أي في ذروة صغاره وفي ذروة تحديه التي كان من الممكن أن تؤهله للإنكار! إلا أنه لم يفعل وهو العالم بالله، قال: «رب فأنظرنني إلى يوم يبعثون»، و«قال رب بما أغويتني لأزينن..».

كل هذه السياقات من البنى، والشهادات، والأحداث تشكل - بالضرورة - أدلة ملموسة لا تقبل الجدل، إنها تؤكد مصداقية ما يُطرح، وتثبت عن دراية<sup>(52)</sup> من إبليس مصداقية الحجّة الإلهية، فتحمل بذلك معول هدم ذاتها بذاتها.

والسؤال المنطقي المطروح الآن: ما الذي استفيده

وقد عرضت هذه التمهصلات عرضياً وصفيًا تقريرياً؛ ليقف القارئ على البنية الفكرية العامة التي جرى الحجاج بناء عليها، وستكون مذ الآن محل الاشتغال والتفسير منهجياً، يتناول الحجاج ضمن أساليبه المعروفة، وأدواته اللغوية وآلياته البلاغية.

### أولاً: حجاجية المقدمات:

ويمكن تعريف المقدمات بكونها القضايا الأولية التي يؤدي التسليم بها إلى نتائج تلزم عنها بالضرورة<sup>(47)</sup>. ورأى بيرلمان Perelman أن مقدمات الحجاج تؤسس لنقاط الارتكاز التي سينطلق منها الحجاج، وقد تتمثل هذه المقدمات بالوقائع الثابتة التي لا شك فيها<sup>(48)</sup>.

إن المقدمة الكبرى التي تصدرت الحجاج في النصوص الكريمة محل الاشتغال هي «الخلق»، بكل إحالاتها للقدرة الإلهية والوحدانية، وهي فكرة مركزية تبني الدعوة الإسلامية وكل حجاج القرآن الكريم عليها. وهي واقعة ثابتة لا شك فيها للمتلقى الداخلي؛ لاعتبارات عديدة منها:

- لقد شهد مجتمع الملائكة خلق آدم - عليه السلام -، وشهده إبليس الذي اتخذ موقفاً عدائياً منه منذ البدايات وكما جاء في الخبر: «ويقال: إنه كان إذا مر عليه مع الملائكة يقول: أرأيتم هذا الذي لم تتروا من الخلائق يشبهه، إن فضل عليكم وأمرتم بطاعته ما أنتم فاعلون؟ قالوا: نطيع أمر ربنا. فأسرّ إبليس في نفسه: لئن فضل علي فلا أطيعه، ولئن فضلت عليه لأهلكه..»<sup>(49)</sup>.

- وشهد إبليس الخلق ضمن التحولات التي جرت على آدم - عليه السلام - قبل نفخ الروح فيه «خلقته من صلصال من حمأ مسنون»، إنها التحولات المشاهدة حساً وعياناً، متعرّف إليه منذ الإنشاء الذي تحقق لاحقاً مادياً، فالله خلق آدم من تراب، تحول إلى طين، حتى أنتن فصار حمأ مسنوناً، وفي تفسير: حتى إذا تغير ورطب فصار طينا مصبوباً، يبس حتى صار صلصالا.

هذه الرؤية الأولى التي ستُقابل بالرؤية الإلهية التالية الداخلة لوجوب تكبر إبليس:

- ما يكون لك أن تتكبر فيها».

- «إنك من الصاغرين».

- «إنك رجيم».

- «إن عليك اللعنة إلى يوم الدين».

- «إن جهنم جزاؤكم».

تشكل الآية الكريمة الأولى العلة الكبرى التي ستدرج تحتها تجليات الصغار، والرجم، واللعنة، والعقاب بالنار، وذلك بسلب إبليس الحق في التكبر، ستكون المعادلة ضمن الطرفين المنطقيين الآتين:

أنا خير منه / تست خيرا منه

وكما أشرت قبل قليل فإن طرفا واحدا سيكون صوابا في هذه المعادلة، وعلى الطرف الثاني أن يكون باطلا. وقد أورد القرآن والمفسرون أسبابا منطقية جعلت علة إبليس باطلة، وفي التفسير<sup>(56)</sup>: إن إبليس هو أول من قاس وكان قياسه باطلا، إذ افترض من وجهة نفسية لا عقلية أو واقعية شرف النار على الطين، وأوردوا ردا من خمسة وجوه:

- جوهر الطين الرزانة، والسكون، والوقار، والأناة، والصبر، وذلك هو الداعي لأدم - عليه السلام - بعد السعادة التي سبقت له إلى التوبة، فأوردته المغفرة والاجتباء، ومن جوهر النار الخفة والطيش، والحدة، والارتفاع، والاضطراب، وذلك هو الداعي لإبليس بعد الشقاوة التي سبقت له إلى الاستكبار فأورثه الهلاك.

- إن الخبر ناطق بأن تراب الجنة مسك أذفر، ولم ينطق الخبر بأن في الجنة نارا، وأن في النار ترابا.

- أن النار سبب العذاب، وليس التراب كذلك.

- أن الطين مستغن عن النار، والنار محتاجة إلى المكان، ومكانها التراب.

هذه المقدمة في الحجاج؟ ما الذي ستفيده النتيجة التي أوصلنا القرآن إليها وهي: إقرار إبليس كون الله - سبحانه - الخالق، وكونه - سبحانه - الرب؟ سأصوغ هذه الإقرار بالصيغة المنطقية الآتية التي ستحمل شقين يترتب الثاني منهما - بالضرورة - على الأول:

### الخالق الرب مطاع:

وقد تتخذ هذه الصيغة صيغة شرطية مثل<sup>(53)</sup>:

- إذا كان الله خالقا / ربًا ، فيجب أن يطاع.

- إذا تقرّر أن الله خالق / ربّ، فيجب أن يطاع.

وهذه الصيغة الشرطية تجعلها تظهر وكأنها قابلة للصدق والكذب، لكنها في الحقيقة تحمل طابع اليقين من حيث إن صيغة الشرط تفيد أنه جرت البرهنة عليها في مجال آخر خارج النص. وقد جرت البرهنة بالفعل التي استدعت إقرار إبليس بكون الله الرب والخالق، ولكنه لم يقر بمستلزمات ذلك من الطاعة، فهو لم يكفر بالعلم، وإنما كفر بالاستهزاء من أمر الله الذي لم يذعن إليه تكبرا.

ستكون هذه المقدمة الكبيرة مرتكزا رئيسا في الحجج المنطقية التي ساقها الله - جل شأنه - ثم إبليس، وستكون - بالضرورة - مرجحة لحق الله، وناقضة لباطل إبليس.

### ثانيا: البرهان بالخلف:

ويعني: إثبات صدق قضية بالبرهان على كذب نقيضها<sup>(54)</sup>. والبرهان بالخلف يعدّ من أسس التفكير المنطقي الذي يرى أن الشيء لا يمكن أن يجتمع مع نقيضه<sup>(55)</sup>، هذا يعني أنه في حال وجود وجهتي نظر / رؤيتين متباينتين، فيجب أن تكون إحدهما صحيحة، والثانية مغلوطة.

قال إبليس في حجته المركزية المعللة لعدم السجود: «أنا خير منه»، والسبب في الخيرية هو تحديدا شرف العنصر الذي رآه إبليس: «خلقتني من نار وخلقته من طين». إذن: فالنار أشرف من الطين، وعلى ذلك فلا يجوز سجود الفاضل للمفضول عليه.

أنها تحمل تناقضا ذاتيا يسبب إحراجها وعدم منطقيتها، مما سيؤدي إلى رفضها<sup>(58)</sup> وسيكون هذا الإحراج في حجة إبليس القائلة بالخيرية من بعدين رئيسين:

- الخيرية وشرف العنصر لا يستدعيان العداء مع أي عنصر آخر لم ييادئ بالعداء لأي سبب كان، وقد أورد المفسرون أقوالا تدل على تعالي الشعور المعادي في نفس إبليس منذ إنباء الله سبحانه بإرادة الخلق أي منذ عدمية آدم وقبلية تخلقه. قال العلماء: «الذي أحوجه إلى ترك السجود هو الكبر والحسد، وكان أضمر ذلك في نفسه إذا أمر بذلك، وكان أمره من قبل خلق آدم، يقول الله تعالى: «...إني خالق بشر من طين\* فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين» فكأنه دخله أمر عظيم من قوله: «فقعوا له ساجدين» فإن في الوقوع توضيح الواقع وتشريفا لمن وقع له، فأضمر في نفسه ألا يسجد إذا أمره في ذلك الوقت»<sup>(59)</sup>.

إذن، إذا كان العنصر شريفا خيرا، فيجب أن ينتج شرفا وخيرا، وهذا ما لم يكن من إبليس الذي أضمر العداء منذ البدايات، مخالفا أمر الرب الذي أقر بربوبيته ووجوب طاعته قبل آدم.

إما أن يكون الشيء خيرا أو شرا، ولا يحتمل أن يجتمعا في ذات واحدة، ولقد زعم إبليس خيريته، بينما نتج عنه الشر في تحديه لله - جل شأنه - وهو يقرر أن:

- يقعد لذرية آدم بكل صراط.
- ويدفعهم للشرك فلا يكونون شاكرين.
- ويزين لهم.
- ويغويهم.
- ويحتكهم متسلطا عليهم.

وفي القعود بكل صراط حرف عن الإيمان الذي شهد بوجوبه في السماء، وفي التزيين والإغواء

- أن التراب مسجد ظهور كما جاء في صحيح الحديث، والنار تخويف وعذاب.

إن تكبر إبليس في حقيقته كان على أمر الله وليس على أبي البشر آدم، وهذا ما أغضب الله - جل شأنه - وقد كان إبليس علم أن الله هو الخالق الرب، وهذا - بالضرورة - يستلزم الطاعة التي لم يقدمها إبليس. قيل: من كانت معصيته في تكبر فلا ترجمه، ومن كانت معصيته في جهل فارجه.

لماذا غضب الله من تكبر إبليس وقد كان في منزلة عالية؟ فكما ورد في الأخبار: «كان من خزان الجنة، وكان رئيس ملائكة السماء الدنيا، وكان له سلطانها، وسلطان الأرض، وكان من أشد الملائكة اجتهادا، وأكثرهم علما، وكان يسوس ما بين السماء والأرض، فرأى لنفسه بذلك شرفا وعظمة» حكاه الثعلبي عن ابن عباس<sup>(57)</sup>.

السبب - والله أعلم - كما هو مستشف من الآية الكريمة «فما يكون لك أن تتكبر فيها» أن كل المنزلة العلية التي كانت لإبليس قد كانت هبة وليست أصلا فالله هو الذي وهبه بإرادته، ولم يتكسب إبليس كل ذلك عن قدرة ذاتية كامنة، فأين الحق في التكبر؟ إنه وارد إذا امتلك إبليس هذه القدرة بعيدا عن إرادة الله وشرف هبته، وهذا ما لم يكن، ودل على ذلك السلب الذي خلق تحولات عاجلة هوت بإبليس من كل تلك الرياسات إلى الصغار، والرجم، واللعنة، والعقاب الخالد في جهنم.

دل المذكور على أن حجة إبليس باطلة، فقد تبين:

- أن عنصر الطين أشرف من عنصر النار.
- أن إبليس لم يكن قادرا قدرة ذاتية بل هي موهوبة، ولذلك باتت مسلوية.
- وحيث بطلت حجة إبليس، صحت - بالضرورة - حجة القرآن الكريم في عدم خيريته، وعدم استحقاقه للتكبر الذي انتهجه.

### ثالثا: المفارقة والإحراج:

إذ تدحض الحجة نفسها بنفسها، وهذا يعني

وذلك بالإلتكاء على الفرضية القياسية التي زعمها إبليس برؤية نفسية لا واقعية كما عرضت لذلك في موطن سابق، وقد نفى القرآن الكريم هذه الحجة بالإضاءة المركزية الأولى العامة: «فما يكون لك أن تتكبر فيها»، وعلى ضوء تفسير المفسرين وتجليتهم لبطلان هذه المقايسة المفترضة، يمكن صياغة النفي القرآني بالصورة الآتية:

ليست النار أشرف من الطين، فليس حقها عدم السجود

من المهم هنا التأكيد ثانية على أن افتراض إبليس لم يكن مبنياً على مشاهدة محسوسة، أو علم بين بطبيعة كل من النار والطين، إنه الافتراض النابع ابتداءً من الكبر والاستعلاء، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم، ما يضعف حجته «المتبته» إزاء نفي الله وهو -سبحانه- الأعلّم أن يكون ذلك سبباً أصيلاً للتكبر، وإذ ساق المفسرون أسباباً وجيهة لعدم أفضلية النار، دلّ النفي القرآني المؤطر بعلة وجيهة على قوة الحجة النافية لا المثبتة من قبل إبليس.

ثانياً: الخفض، ويعني أنه إذا صدق القول في مراتب معينة في السلم، فإن نقيضه يصدق في المراتب التي تقع تحتها. إن هذا يستلزم أن تكون هناك حجة كبرى تضوي تحت عباءتها الحجج الأقل منها بالضرورة، فإذا قلنا مثلاً إن فلاناً قوي علمياً؛ لقد حصل على الدكتوراة ستكون هذه الحجة بليغة دالة على الدرجة العلمية التي ستثبت بالضرورة أنه نال الماجستير، والإجازة العامة. أما إذا ابتدأنا بطريقة عكسية فإن الحجة ستكون أضعف ولا تقضي بالضرورة للنتيجة العليا، فأن ينال زيد الماجستير لا يعني أنه نال الدكتوراة.

على ضوء المذكور، فإن إبليس أراد لحجته أن تكون الأعلى في السلم الحجاجي، حيث تنتظم تراتبياً أسفلها إرادته بعدم السجود، وسأرسم ذلك بالآتي:

كذب وضلال يبعدهما عن الحقيقة، وفي الاحتكاك تسلط بغير وجه حق. وفي سورة الإسراء سياق يدل على إرادة إبليس أعلنها -سبحانه- حيث سيستفز المؤمنین بالصوت، ويجلب عليهم بقواته الراجلة والراكبة، ويشارك ذرية آدم في الأموال والأولاد مدخلا الفساد والعصيان في حياتهم.

إن الخير قيمة مطلقة لا يمكن أن تتسجم مع الباطل، ولا يمكن أن تكونه، وحيث أكد إبليس سعيه في كل تلك المفردات الفاسدة، فإن ذلك يدل على عدم خيريته وشرف عنصره كما زعم، وبذلك تكون إقراراته المتوالية، وأفعاله المؤكدة واقعيًا دافعا منطقياً لرفض فكرة خيريته، بسبب التناقض الذي سبب إخراجاً في إثبات اعتقاده الفاسد. ولا شك أن من أهم سمات الحجة المنطقية أنها لا تناقض نفسها، وتتسجم مع حجج أخرى تدافع عن ذات الأطروحة، وهذا ما لم يقرره إبليس كما بينت الإشارات السابقة.

#### رابعاً: السلم الحجاجي:

يمكن إخضاع الحجج المسوقة في «مسألة السجود» للسلم الحجاجي الذي طوره الفرنسي ديكرودucrot<sup>(60)</sup>، ويساعدنا هذا السلم في النظر إلى المنطق الحجاجي من زوايا مختلفة، كما أنه يضعها في تراتبية منطقية تهين الحكم على مدى قوة الحجج، ما يؤدي للمفاضلة بينها، والميل لميزان الفاضل لا الحجة المفضولة.

من قوانين السلم الحجاجي التي يمكن استثمارها في هذه الرؤية:

أولاً: النفي، وفيه يحضر قول يخدم نتيجة ما، ونفيه سيكون حجة لصالح النتيجة المضادة.

يمكن صياغة علة إبليس الكبرى لعدم السجود «أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين» بالصيغة الآتية:

عنصر النار أشرف من عنصر الطين، فحقه عدم السجود.

النار أشرف من الطين  
إبليس أشرف من آدم  
لا يسجد الفاضل للمفصول

لإبليس إثر تمرده:

«إن لك ألا تتكبر فيها»  
ليس إبليس أشرف من آدم  
إنه (مذؤوم مذخور ملعون رجيم..)

ولو ملك إبليس الحق في التكبر لانتفى ذمه ولعنه ورجمه، ولكن الآية الكريمة تشير إلى فقدانه ابتداءً هذا الحق، وهو أوجب عقابه بضده إذ وقع فيه.

### حجاجية اللغة :

أسهمت اللغة بتركيباتها الانتقائية في عملية الحجاج، إذ اتخذت أسلوبية لم تتخلق اعتبارياً البتة، بل كانت فاعلة إلى حد كبير في إنتاج البرهان الدال على الحجج المسوقة الممثلة للرؤيتين: الإيمانية والإشراكية، وسأقف هنا على أبرز الأدوات اللغوية ودلالاتها الحجاجية:

### في سياق الحججة الإلهية :

- اضطلمت اللغة بإثبات حجة الخلق لله سبحانه، فحق الأمر عبر تقنيات متعددة، أبرزها:

الوصل السببي، حيث يتم الربط بين أحداث متعددة تشكل المقدمة / الحججة، والنتيجة. وفي هذا الوصل قد يوظف الرابط اللغوي بينهما وقد يستغنى عنه ويفهم إضماره من خلال السياق<sup>(62)</sup>، وسأعبر عن ذلك بالصيغة الآتية:

الله - سبحانه - الخالق المصور، إذن هذا موجب لحق الأمر .

فكون الله - سبحانه - الخالق المصور: حجة.

وحق الأمر: نتيجة ترتبت على الحججة المذكورة.

والرابط السببي بينهما هو: إذن.

وقد مثلت الآيات الكريمة الوصل المذكور دون رابط سببي في عدد من السياقات:

«ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة

وقد أعلن النص الكريم نفيه للحجة الأقوى لإبليس حتى صارت الأوهى فسقطت من أعلى السلم الحجاجي، وتهاوت إثر ذلك كل الحجج والأفعال التي ترتبت عليها، فإذ نفيت فكرة أن النار أشرف من الطين، فهذا يعني أن إبليس ليس بالضرورة خيراً من آدم، فهو ليس فاضلاً في علاقته مع مفضلول يتمتع للسجود له.

في المقابل ساق القرآن الكريم عدة حجج فكرية وواقعية دلت على حق الله - سبحانه - بالأمر ووجوب الطاعة وإنكار التمرد على أوامره - جل شأنه - ، سأرسم ذلك بالآتي:

الله الخالق الرب  
الله يأمر  
المخلوق يطيع

قال المفسرون<sup>(61)</sup> في قوله تعالى: «قال فالحق والحق أقول» الحق الأولى مرفوعة على الخبرية والمعنى: أنا الحق، والثانية منصوبة لمقول القول، وهذه الآية وردت في «ص» إثر تحدي إبليس بإغواء ذرية آدم - عليه السلام - . إنه الإقرار الذي يناسب كونه - سبحانه - الخالق المطلق والرب المطلق المستأهل وحده دون غيره بالأمر بالطاعة، وكل هذه الإثباتات الكريمة ستكون كما أسلفت أعلى السلم الحجاجي الذي سيرتب - بالضرورة - أن الرب الحق، الخالق، إرادته مطلقة نافذة، يأمر بما يشاء وحق أمره الطاعة، وسأذكر بأن إبليس أقر كلا من الصفتين الجليلتين لله «الخالق، والرب» مما استلزم الإذعان لا الرفض والتمرد.

في حق إبليس، رتب النص القرآني حجة كبرى نافية، ستوضع أعلى السلم الحجاجي، وعبرها سيدرك المتلقي مجموع المواصفات التي نسبت

- «اسجدوا لآدم»  
الحجة  
«إني خالق بشرا .. فإذا سويته ونفخت فيه من روحي
- «فقعوا له ساجدين»  
الحجة  
وقد ذكرت في مبحث الأساليب الإقناعية المنطقية كيف تمثلت عملية الخلق حجة كبرى في إثبات مطلق الأمر لله سبحانه، فوجوب الطاعة.
- الأفعال التقريرية: إذ تواتت الأفعال الماضية المقررة لفعل الخلق الثابت النسبة إلى الله - سبحانه-، فلم يعد الأمر احتماليا أو قابلا للشك، وانضاف لهذه الأفعال حرف «قد» في عدد من المواضع لزيادة تأكيد التحقق وعدم الشك فيه، فمن المعروف أن قد الداخلة على الماضي تفيد هذا المعنى:
- «ولقد خلقناكم ثم صورناكم».
- «ولقد خلقنا الإنسان من صلصال .. \* والجآن خلقناه من قبل من نار السموم».
- ومن اللطائف التي يجدر ذكرها، أن الآيات الكريمة التي أنبأت الملائكة عن حتمية الخلق مستقبلا، قد وظفت الماضي للدلالة عليه، فانسأقت بذلك لإطار التحقق والإرادة النافذة قطعاً لا احتمالاً، الإشارة هنا لفعلي التسوية ونفخ الروح:
- «إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين\* فإذا سويته ونفخت فيه من روحي»
- وكشفت اللغة إثبات عدم استحقاق إبليس للتكبر «فما يكون لك أن تتكبر فيها» وهي حجة كبرى بينت وقوعها أعلى السلم الحجاجي من خلال:
- توالي أفعال الأمر قبل الحجاج وبعده، ممّا يدل على المكانة العلية لله - سبحانه - وأنه المتكبر المستعلي على وجه الحق والوجوب، لا إبليس الذي زعم هذه المكانة له:
- «اسجدوا لآدم».
- «فقعوا له ساجدين».
- «فاخرج إنك من الصاغرين».
- «اخرج منها ..».
- «اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم ..» ... إلخ .
- أدوات التأكيد:
- وقد حضرت في الرؤيتين المحاججتين، فكانت في حق الله تأكيداً على القدرة، وفي حق إبليس تأكيداً على ضلال رأيه، وفساد صنعه، إذ تؤكد كل حجة توجهها، وحيث كانتا متباينتين فإن هذا التأكيد يقرر بالضرورة صوابية إحداهما وبطلان الأخرى، وتحتل ثنائية الحق والباطل درجة أعلى في هذا السياق إذا اقترنا بالتأكيد، وهي لعبة لغوية غير حيادية تهدف للبناء والهدم بشكل قصدي معلن: «يشكل مضمون المفهوم الدلالي الحاصل من التراكيب التي دخل عليها التوكيد بيان وأن مع اللام والقسم والقصر نظرية فكرية أو أخلاقية، وإذا رمنا مزيد التدقيق قلنا إن هذا المفهوم الدلالي يكون في القرآن إما هدماً لنظرية ما قائمة، أو محتملة الحصول، أو بناءً لنظرية ما، أو تذكيراً بها»<sup>(68)</sup>. وسأسوق هنا التأكيد الأول الدال على القدرة الإلهية المطلقة ممّا ينفي بالضرورة- امتلاك إبليس إياها:
- «قال إنك من المنظرين».
- «إن عبادي ليس لك عليهم سلطان».
- «وإن جهنم لموعدهم أجمعين».
- «فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا».
- «فإنك رجيم».
- «وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين».
- «لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين».
- الصفات اللازمة لإبليس:
- تكشف تحوله من عالم بالله مكرم، صاحب سيادة

العام الآتي: بما أن الوحدة الأساسية للغة هي الزوج: سؤال/جواب، فإن استعمال اللغة يحدد دائماً تبعاً له، وهذا يحدد -بالضرورة- أن لكل سؤال جواباً، وأن كل سؤال هو الحرج، أو الضرورة، أو العائق الذي يستلزم البحث واتخاذ القرار، ممّا يشكل سيرورة شاملة يحيل فيها أحدهما على الآخر<sup>(66)</sup>.

بدأ إبليس بعدم السجود، ولكنه لم يعلن حجته في ذلك إلا بعد السؤال الكريم الذي وجهه -سبحانه- إليه، وقد توالى ذكر هذا السؤال في كل مرة عرضت فيها قصة السجود إثباتاً وإضماراً:

- «قال ما منعك ألا تسجد».
- «قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين».
- «قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين».
- وإضماراً مفهوماً من سياق الجواب: «قال أسجد لمن خلقت طيناً».

كان السؤال الإلهي بأداة «ما»، وهي أداة تتحرك في أمكنة خاصة، وتقود لطبيعة معينة من الإجابات تتجاز إلى جهة القول البرهاني، وسيحدد على ضوء ذلك المستوى «الجوهر» الحقيقي عن المسؤول<sup>(67)</sup>.

وإذن، تصدر السؤال إطلاق حجج إبليس، كان البداية التي أشرعت منطقته وإعلان براهينه في عدم الإذعان لله -جل شأنه- وعلى ذلك فهو تقنية لغوية مهمة لا تكشف عدم العلم بالمسؤول عنه، وهذا ثابت بالضرورة في حق الله -سبحانه-، ويجري على السائل المحاجج من البشر، وإنما يُعتمد عليه في إطلاق الحجج وطرح الأدلة والبراهين حول النقطة المركزية التي يدرك المحاجج السائل تفوقه فيها، وإمكان هزم المخاصم في جوابه عنها. إن عدم السجود خطيئة لم تستند إلى أي أساس فكري أو شرعي يمكن أن يُناقش، ولذا فإن مجرد إعلان السؤال عن الامتناع حقق سقوط الحجّة، أي: إن لحظة السؤال كانت ذاتها لحظة إيقاع الهزيمة بإبليس.

في السماء والأرض، لمخلوق صاغر حتى أبد الأبدان، ممّا يحجّم منطقياً الحجّة المزعومة باستحقاقه التكبر، ورد ذلك من خلال الصفات المشبهة، وأسماء المفعولين. إن الصفات تحمل -بالضرورة- بعداً حججياً مكثفاً، إذ تقدم اللفظ الواحد إحالات عديدة بانية أو هادمة للحجة المعروضة؛ لذا لا يمكن الاستخفاف بالقيمة النوعية لها. «تعمل هذه النوعات الوصفية كمطرقة تنهال على مسمار، وتمنح هذه الكلمات صفاً من الأحكام القيمة إلى ما تطبق عليه»<sup>(64)</sup>:

- «من الصاغرين».
- «مذوّوماً مدحوراً».
- «رجيم».

ويحمل اسم إبليس الصفة الكبرى المحيلة لكل تلك المعاني، فأبلس: أيس من رحمة الله. وإطلاق الله لهذه العلمية منذ بدايات الحجج وقبل إعلان التمرد، يجيء ضمن معرفته سبحانه السابقة بإرادة إبليس المضمرة، وسعيه لإنفاذها.

حملت حجة إبليس إحراجاً في ذاتها عندما فارقت بين خيرية عنصره وسوء طويته وفعله، وقد عبّر عن إرادته الإغواء بأدوات التأكيد بشكل لازم في كل السور محل الدراسة، ممّا يدلّل لغوياً ومنطقياً على عدم خيريته:

- «لأفعدن لهم صراطك المستقيم» ثم لآتينهم من بين أيديهم».
- «لأزين لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين».
- «لأحتكن ذريته إلا قليلاً».
- «قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين».

#### في السؤال الحججى:

إذا كان ديكرود Ducrot يرى أن كل قول حجج، فإن ماير يقرر بأن كل سؤال حجج<sup>(65)</sup>. وقد صاغ ماير Mayer صاحب نظرية المسألة الحججية القانون



عبر تقنية أولى هي:

الوصل السببي الذي عرض فيه حجة ونتيجة متكئة عليها بالضرورة: «أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين».

إذ تتشكل عملية الخلق من عنصري النار والطين الحجة.

وتترتب على هذه الحجة النتيجة المزعومة «أنا خير منه»

وواضح عدم وجود الرابط بينهما وهو مفهوم بالضرورة: أنا خير منه، إذن لن أسجد له.

وقد أفرزت النتيجة الأولى التي وصل إليها إبليس نتيجة أخرى كانت محلا لكل هذا الحجاج وهي عدم السجود، فمع معرفة الله - سبحانه - المسبقة بما أضمره إبليس من هذه الرغبة المتعالية إلا أنه لم يحاسبه عليها، بل حاججه عندما تجلت واقعا ملموسا وحسب:

خلقتني من نار أنا خير منه أسجد لمن خلقت طينا

حجة نتيجة 1 نتيجة 2

الروابط الحجاجية: تربط بين حجتين أو قولين، وتسد لكل قول دورا محددًا داخل الاستراتيجية الحجاجية العامة. أما في المثال السابق الذكر، فقد كان الرابط مضمرا مفهوما من السياق، وهو رابط سببي يبين العلة التي لأجلها لم يسجد إبليس لآدم وكأن القول:

لم أسجد لآدم لأن الله خلقتني من نار وخلق آدم من طين.

وفي سياق آخر:

لم أسجد لآدم لأن النار وهي عنصري خير من الطين وهي عنصره.

إلا أن حجاج إبليس مع الله - جل شأنه - في انتقامه من ذرية آدم بإغوائهم، احتمال الرابط الحجاجي إثباتا لا إضمارا، ويعد الرابط الموظف

ومما ساهم في تعجيل إيقاع هذه الهزيمة حضور السؤال في مهاد حاضر، وهو الامتناع عن فعل السجود/ حجاج فعلي. قال أرسطو Aristotle: «وفيما يخص السؤال فإنه يكون من المناسب بوجه خاص أن يُطرح عندما يكون الخصم قد عرض أطروحته، أو قضيته المضادة، بحيث يكفي علاوة على ذلك سؤال واحد حتى يقع في الخلف والتناقض»<sup>(68)</sup>.

بعد طرح السؤال في إثارة المتلقي الخارجي وإشراكه في إقامة حفریات عن الجواب، ومساءلته عن مدى صوابيته متى طرح يمكن عد السؤال هنا كالعقبة في مجرى النهر، التي لا بد أن تستوقف المرء عوض الجريان السلس في التلقي، فلو تمت الصياغة مجردة عن السؤال: امتنع إبليس عن السجود لآدم كونه يرى نفسه أشرف منه، فإن العبارة تكون قد خسرت منحني مهما في تفكير المتلقي وإثارة شغفه. هذا يعني أن حضور الاستفهام كان موظفا قصدياً لإثارة المتلقي، وتشكيل منعطفات في تفكيره تستفزه لمزيد بحث ورؤية، وقد عُرِضَ بصورة جمالية حققت وظيفيا كسر حجة إبليس في مبناه / السؤال:

- «قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك» وإيحاء الآية الكريمة يدل بقوة أنه أمر مستعل لم يكن حقه إلا الإجابة.

- «مالك ألا تكون مع الساجدين» سؤال يستثني إبليس منذ البدايات من الإيمان والحق، حيث وُضِحَ انسلاخه من زمرة الساجدين المؤمنين.

- «قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين» وهو سؤال جليل حمل استعلاء الله في كونه الخالق، الكاشف المطلع على غيب مستكبر أضمره إبليس، بما في ذلك من إيحاءات الاستخفاف بهذا الكبر الذي لا يليق به، ولم يكن جديرا به.

### في سياق حجاج إبليس :

كشفت اللغة بإحالاتها الدلالية حجة إبليس الكبرى في هذه المحاججة المركزية في القرآن الكريم،

المكرر في أربعة مواضع كان له أثر بالغ في التقاط المفصل المركزية للقصة دقيقاً ومختزلاً، يبقى في الذاكرة دون متاهات التطويل. ألم ينصح أرسطو في مصنفته عن البلاغة بالتكثيف والتكرار؟<sup>(73)</sup>. ولذلك ستحتل القصة الكاملة من الحجاج موقفاً خاصاً مؤثراً في المتلقي، بينما ستنهض هذه الإحالات الكريمة لتأكيد التأثير، وضمان استمرارية فعاليته في أثناء المضي في تلقي آيات الله.

إن الحجاج في القصة كان بالغ التأثير إذ كان مكتمل العناصر في سلسلة أحداثه الممتدة من الخلق لحظة الإنشاء به، حتى الخلود الأبدي في الجنة أو النار. أحداث احترمت الترتيب الكرونولوجي بحيث أسست فهما زمنياً متسقاً في ذهن المتلقي لمجريات الحدث تامة، أحداث منضبطة مفصلة مع تكثيفها، وهذه الثلاثية: الترتيب الكرونولوجي، وانضباط الأحداث، والوقوف على تفاصيلها، سيكون لها أثر مقنع حجاجياً إذ تعد من أهم تقنيات السرد التي تحفز الإقناع، وتثير القابلية له<sup>(74)</sup>.

وقد أثارت القصة نقاطاً تفصيلية كان لها دور بارز في تحفيز الحجاج ومداولته بين الله - جل شأنه - وإبليس، نقاطاً حجاجية كبرى اتكأ عليها النص القرآني لتوضيح ضلال إبليس، وفي المقابل نقاط حجاجية ضدية اتكأ عليها إبليس في محاولة غير ناجحة البتة لإثبات رأيه وقياسه الأول الذي أبطله سبحانه، وأدركنا عقيدياً وواقعياً لم كان باطلاً؟.

في القصة حوار حجاجي ممّا لم نجده في الإحالات الكريمة، والحجاج هو أساس كل علاقة حوارية تستهدف التأثير على الخصم، قال أرسطو<sup>(75)</sup>: هدف الجدل هو غلبة أحد المتحاورين للآخر، وحيث كان منطق القرآن الكريم حجاجياً من الطراز الرفيع، فإن القصة هنا أسست لحوار لم يحقق متعة جمالية حسب، بل كانت غايته إقناعية بالدرجة الأولى وصدّرت القصة الحوار بسؤال حجاجي كان من شأنه أن يفتح باب الحوار على

من الروابط المدرجة للحجج القوية، وهو الباء المعلن للسبب:

- «قال فيما أغويتني لأقعدن لهم».

- «قال رب بما أغويتني لأزين».

وقيل في تفسير ذلك إن إبليس بسبب القدرة التي وهبه الله إياها استعلى واستكبر، ممّا أفسد حياته الناعمة في الجنة؛ لذا سيفسد في الأرض ذرية آدم.

### حجاجية القصة :

سرد القرآن الكريم إحالات مكثفة لأجزاء من قصة إبليس وسجوده لأبي البشر - عليه السلام - وهي أربع إحالات:

- «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين»<sup>(69)</sup>.

- «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ..»<sup>(70)</sup>.

- «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى»<sup>(71)</sup>.

والإحالة الرابعة من سورة النساء لا يُذكر فيها السجود، ولكن يُذكر فيها منطق إبليس في التحدي والإضلال، ممّا يشير إلى أحداث القصة الرئيسية: «لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً» ولأضلنهم ولأمنينهم ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولأمرنهم فليغيرن خلق الله»<sup>(72)</sup>.

تكمّن قيمة هذه الإحالات الكريمة في توجيه المتلقي الخارجي لقضية السجود وامتناع إبليس، إنها قصة حاضرة ويجب التعالق معها أبداً لوظيفيتها العقيدية، التي تقص الكفر الأول ممّا يجب الحذر منه، لكن المتلقي وإن كان بحاجة لمثل هذا التأكيد في سور عديدة من النص القرآني، حتى لا يقع في شرك إشراكي أعدّه له عن تصميم وقصد، إلا أنه لن يحسن توجيه النص القرآني دون العودة للقصة المكتملة في المواضع الأربعة التي أشرنا إليها سابقاً، وإن عرضت عرضاً مكثفاً سريع الإيقاع، بل إن هذا التكثيف

ضرورة استدخال هذا الطريق الحجاجي في الدرس السيكلولوجي التجريبي؛ ذلك أن إثارة القيم قد لا تلزم المحاجج، ولكنها بالضرورة تمارس تأثيراً قويا عليه يقارب حد الإلزام<sup>(77)</sup>.

إن إمكان الاشتغال على البعد النفسي في الحجاج محل الدرس واسع؛ ذلك لأن منطق الحجاج المركزي عند إبليس نفسي وليس فكريا عقلانيا، يدور حول خصلة نفسية هي التكبر استتبع - بالضرورة - ترسيمة كلية منساقاة لإطارها الشمولي الذي فضحه القرآن الكريم «فما يكون لك أن تتكبر فيها». جدير بالذكر هنا التأكيد على نوعين من المتلقين استهدفهما النص في هذا الحجاج:

- المتلقي الداخلي، ومركزيا هو إبليس الطرف الرئيس المحاجج لله - جل شأنه -، ثم بدائرة أوسع مجتمع الملائكة وآدم - عليهم السلام - الذين كانوا متلقين فاعلين في عملية السجود المأمور بها.

- المتلقي الكوني الخارجي، المتلقي للقرآن الكريم، على امتداد المساحة الزمانية والمكانية التي يتم فيها التلقي، وعلى امتداد المساحة الجنسية لعالمي الإنس والجن.

وأميل بعد طول المدارس لكون المتلقي الكوني هو المقصود الأول بعرض هذا الحجاج، لذا هو حجاج وظيفي يستهدف التأثير الإيماني عبر كشف حقيقة الكفر التي لم تسق لحظة للمنطق، فالعقل يأتلف مع الإيمان، وينساق الكفر للاستعلاء غير المستند إلى أي بعد فكري عميق. أما لماذا أقصي كون إبليس متلقيا مقصودا من الحجاج؟ فقد عرضت في مواطن متعددة الأخبار التي استعلنت بإضماره الكفر ورفض الانصياع لله - جل شأنه - مما علمه الله سبحانه بعلمه المسبق، فكان الحجاج برمته كشفا لتلك الحقيقة المضمر، وتديدا بها عبر عرض صورتها المشوهة التي مسخت إبليس فجعلته شيطانا رجيمًا مظلمًا، وهذا - بالضرورة - هو النسق العقابي الذي سيتكرر تحققه متى تحقق الطرف الأول من المعادلة لأي متلق كان من الإنس أو الجن.

مصراعيه، وإن حمل في ثيابه تيمات الغلبة، وعناصر تفنيد برهان إبليس وادعائه.

أوضحت القصة صورة مكثفة دالة لإبليس وهو يخرج من زمرة الإيمان مؤسسًا للكفر، وقائدا له، ومؤكدا احتناك ذرية آدم وتسييرها في رواقه، في زمانين ممتدين واقعيًا وغيبيًا، ومكانين شاسعين هما مساحة الدنيا والآخرة، وبذلك تواطأ كل جزء من القصة ومكوناتها: الشخص، والحوارات، والزمان، والمكان، والخطاب العام ليكون جزءًا من البرهان الدال على فساد حجة إبليس وعدم خيريته، في مقابل إشراق الحجة الإلهية وصوابيتها بالضرورة وهذا يدعو للتأكيد على كون القصة في تشكيلها الذي ذكر حجاجا على صعيد الخطاب والشكل الذي نطق بالخطاب، أي العناصر التي ائتلفت لتكون بتفصيلاتها الدقيقة، وتوجيهات بنائها العامة دلالة واضحة وبينة على المعنى العميق الذي اكتنزت به القصة، وكان قوام الحجاج الأول كونيًا.

### الحجاج والتصوير النفسي:

أولى بيرلمان Perelman أهمية خاصة لعلاقة البرهنة بالبعد النفسي الذي يشكل تقنية معرفية ضمن نسيج تقنيات فكرية واجتماعية عديدة، سيمر الخطاب من خلالها محققا ببراعة نفاذية خاصة للمتلقى المحاجج الذي حوَصر على صعيدي العقل والنفس، إن الحجاج دراسة للعقل، يختار المحاجج فيها أنجح الطرق لمحاورتها، فإذا أقصى السياقات النفسية والاجتماعية، فإن الحجاج بالنسبة إلى بيرلمان Perelman سيكون بلا غاية ولا تأثير.

تتعلق البرهنة النفسية بالقيم المؤثرة في الوجدان، والموجهة للذات فكريا، ولذلك جعلها بيرلمان Perelman من القواعد الحجاجية الأولية التي تمارس دورا نافذا، قادرا على تحديد درجة القبول أو الرفض للتصور العام المقدم<sup>(76)</sup>. وبصورة موسعة، ركز بيرلمان وتيتكا Perelman & Tyteca بناء على الأثر النافذ حتى فكريا للبعد النفسي في البرهنة، على

### الصورة النفسية في التلقي المركزي الداخلي؛

عرض الحجاج صورة مشوهة لإبليس فكريا، فقد ثبت بطلان قياسه القائم على المفارقة بين عنصري النار والطين، واختياره خيرية النار، وكشف الحجاج على ذلك النفسية المتمثلة في التكبر والاستعلاء، وهي السمة الرئيسية التي كانت سببا في كل ما توالى لإبليس من صور الصغار، والذم، والدحر، والرجم، واللعنة .. إلخ.

إن هذه الصورة لم تكن عابرة بدليلين: يكمن الأول منهما في الإصرار المسبق بمجرد إنباء الله - سبحانه - بإرادته العلية الكامنة في الخلق، فقد أعلن إبليس رفضه السجود، بل إنه حاول تمرير ذلك للملائكة عندما تكاشف مسائلا: ما أنتم فاعلون؟ قالوا: نطيع أمر ربنا... قال: لئن فضل علي فلا أطيعه، ولئن فضلت عليه لأهلكنه!. ما بين الإنباء، ثم الخلق، ثم الأمر مسافة زمنية كان يمكن أن تتم فيها مراجعات فكرية ونفسية لم تتحقق، بل ساهمت تلك المدة في تأجيج الاستكبار والحسد الذي كشف عن حضوره بمجرد أن كان الخلق واقعا، وأعلن الأمر الرباني الذي قوبل مباشرة بالتمرد والرفض.

أما الدليل الثاني فيمكن في عدم التراجع أمام الله - جل شأنه - بعد أن انكشفت علة إبليس الباطلة، إن منزلة الله سبحانه، ثم الهيات التي وهبها من سيادة في العلم، والسماء، والأرض، ثم الجو الإيماني السائد في زمرة المؤمنين المذعنين، كل ذلك لم يردع إبليس، بل دعاه لتحد يدرك - ضرورة - أنه لا يفوز فيه، كان رهانه باطلا، وسبقه خائبا، لكنه أقصاه سائلا المهلة: «قال أنظرنني إلى يوم يبعثون»، ثم متكشفا عن صورة نفسية غاية في التشوه عندما أعلن تجنيده لكل ما وهب من قدرة وعلم في الإغواء والإضلال، متوسلا لذلك بأدوات التأكيد «لأقعدن، لأتنيهم، لأغوينهم...»، والمشاهد المتوالية في الإحاطة بذرية آدم عن اليمين والشمال، ومن بين أيديهم وخلفهم حتى لا يكونوا مؤمنين.

أفرزت هذه الصورة المتردية غير المنسجمة مع

أجواء الإيمان الغامرة لمجتمع الملائكة في الجنة، إقصاء حتميا مثلته العديد من أفعال الأمر: اهبط، اخرج منها.. وبذا تنتهي هذه الصورة السوداوية في عالم الجنة، وتبدأ في عالم الأرض إفسادا وإضلالا حتى الموعد المضروب المرجأ إلى «يوم يبعثون».

### الصورة النفسية في السياقات الخارجية

ربت إحالات القرآن الكريم إلى الشيطان وجنوده على الخمسين موضعا، عدا المواضع الكريمة التي كانت محلا للحجاج المباشر بين إبليس والله - جل شأنه -، وقد أجمعت الصور على نسقية خاصة تمتثلت في:

- إقصاء الشيطان البعد الفكري في حوار مع الإنسان، وإخراجه عن الصراط المستقيم، وتعليل ذلك أن العقل يأتلف مع الإيمان فلن يكون مدخلا يتكئ عليه للإغواء.

- في المقابل، تنامت الأبعاد النفسية التي يستثمرها الشيطان في التأثير على الإنسان وإضلاله، هذا يعني أن الهوى النفسي هو الذي سيكون على مفترق طرق، فإما أن يختار الإيمان، ولذلك كان استثناء الزمرة المؤمنة من أثر الشيطان «ولا تجد أكثرهم شاكرين»، وهذا يستلزم حضور قلة مؤمنة شاكرة «إلا عبادك منهم المخلصين» قال هذا صراط علي مستقيم» إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين»، وإما أن يختار الغواية وهذا محل اشتغال الشيطان وجنوده في الأرض.

والسؤال هنا قبل عرض صور ممثلة للإطار النفسي العام الذي حفزه الشيطان للإضلال: ما قيمة الوقوف على أبعاد الصورة النفسية خارج إطار الحجاج المركزي بين الله وإبليس؟. والجواب هو فيما قررته قبل سطور، وأجد من الضرورة بمكان التأكيد عليه ثانية، أن هدف الحجاج ووظيفته ابتداء تتوجه للمتلقي الكوني الخارجي، وليس الداخلي / الملائكة وآدم .. وعلى ذلك كثف القرآن صورة سوداوية غير

- «إن الشيطان ينزغ بينهم»<sup>(85)</sup>.
- «فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى»<sup>(86)</sup>.

والعديد من الآيات الكريمة التي تقض حقيقة ارتكاسة الشيطان النفسية التي يحاول تمريرها لذرية آدم نفسيا لا فكريا، لذا عبّر القرآن عنها بكلمات تكشف هذا الإيحاء الذي يمارسه الشيطان، ويحاول استدخال قناعة به في ذات متلقيه الغاوي. وقد عمدت عدة آيات لهذا الكشف، إضافة لتوضيحه بذكر الحقيقة لا الوهم، فما يعد الشيطان؟ إنه «الفقر»، والعمى، ولذا ففي الأعراف جمع لجذلية العمى والبصيرة حيث تتحقق الأولى باتباع الشيطان، والثانية بالبعد عنه: «إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون».

في إنباء مستقب آخر يكشف الله - سبحانه - ما ستؤول إليه نهايات هذا الترددي النفسي الإغوائي، لعل المتلقي المنبهر بوسوسة الشيطان ينتبه لهذا الكشف الحقيقي فلا يفتر، إن الله ينبيء بخذلان الشيطان أولياءه والتخلي عنهم لحظة الحقيقة التي يعلن فيها كون الله الحق المطلق، ما يذكرنا بإعلان الله - سبحانه - ذلك وقت التحدي الأول «قال فالحق والحق أقول» إذ فسر المفسرون رفع الحق الأول بالإخبار، والمعنى: أنا الحق: «وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم»<sup>(87)</sup>. وبكامل التكتيف لهذه الصورة الواسعة التفاصيل يوم البعث: «وكان الشيطان للإنسان خذولا»<sup>(88)</sup>.

يقف المتلقي الخارجي على صورة نفسية مهترئة ومشوهة لإيليس / الشيطان، كانت قوام تعامله في إغواء الإنسان، وقد امتدت هذه الصورة في المراحل الزمنية والمكانية الآتية:

إشرافية امتدت على مساحته عموما ليلتقاها المتلقي بكل ما تحتل من تأكيدات وتفصيلات تحيل على الصورة الكبرى التي وقعنا عليها في الحجاج الأول «التكبر، والصفار، وإرادة الإفساد»، إنها صورة الخاسر في رهانه الأكبر، الوارث عقدة الانهزام بحيث يريد تمريرها وإسقاطها على الآخر في سبيل استشفاء لا سبيل إليه. أوردت الأخبار أن الشيطان إذا اطلع على سجد الإنسان «اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا ويله! - وفي رواية: يا ويلي! أمر ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار»<sup>(78)</sup>.

في عرض صورة الشيطان النفسية المبرهنة على فساد عقيدته واعتلال داخله تأكيد على:

- اشتغال دنيوي مستمر، قوامه نفسي لا فكري.
- اشتغال أخروي يوئد حجاجا أخيرا بين الشيطان وأوليائه.

أما الاشتغال الدنيوي ففيه كل دعوة مستمرة محفزة للهوى، ومنساقاة للنفس وشهواتها، في تعيب واضح للعقل والبصيرة، إن دعوة الشيطان أشبه ما تكون بالوهم الكبير إذا فتشته لم تجده شيئا، إزاء حقيقة الإيمان وصلاح الدنيا والآخرة:

«... ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين\* إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون»<sup>(79)</sup>.

- «الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء»<sup>(80)</sup>.
- «إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان...»<sup>(81)</sup>.
- «إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه»<sup>(82)</sup>.
- «إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء...»<sup>(83)</sup>.
- «ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون»<sup>(84)</sup>.

وقد خلص البحث عبر القراءة المنطقية المرتكزة على نظرية الحجج المستثمرة للحجج العقلية، والأدوات اللغوية والبلاغية إلى الآتي:

- عرضت نصوص القرآن الحجج لغايات تلقيه كونيا، إضافة للتلقي الداخلي الذي تمثل بجنس الملائكة وأدم - عليه السلام -.

- قامت حجة الكفر على القياس الباطل، وعدم القدرة على البرهنة العقلية والنفسية على صوابيتها.

- تمثلت الحجة الإلهية بإشراقيتها ومنطقيتها، وهي تتوجه عقلا وروحا لمتلقيها عموما، وقد اتسمت بـ:

• عدّها لمركزية الثقافة الإسلامية التي تنطلق ابتداء من فكرة التوحيد، وصولا لأهدافها وليس العكس.

• إثارة الحجة المنطقية بتكامل يجعل ردها ضربا من الهوى.

• عدّها للبرهنة النفسية، لتألف بذلك دائرة الحجة مكونات الإنسان العقلية والروحية.

• استثمار اللغة بتشكلاتها الخاصة لتكون حجة ودليلا مبرهنا على صوابية الإيمان، وبطلان رأي إبليس المتمرد على جلال الله.

- هناك تقاطعات ظاهرة في حجج النص القرآني لإبليس والمشرّكين عموما، كما هناك مشابهاة بين حجج إبليس والمشرّكين القائمة على التكبر والهوى، وهي باطلة عقلا داحضة منطقا.

- قبل خلق آدم - عليه السلام - تمّ ذلك بمجرد بإنباء الله بإرادة الخلق الذي إن تم سيكون الأمر بالسجود.

- بعد الخلق، عندما أفصح بكل مكونات الذات، وأظهر التكبر وفساد الرأي.

- في الأرض منذ نزول الإنسان إليها حتى قيام الساعة، إذ كشفت حقيقة التزيين والإضلال والإغواء التي وعد بها في أثناء حججه مع الله - جل شأنه - في السماء.

- في الآخرة، حيث يغلق دائرة التردّي بخذلانه الأكبر للإنسان، وإعلان الحق لله - سبحانه -.

لا شك أن عرض هذه الصورة النفسية السوداوية لإبليس بكل هذه المكاشفات والمفاصل المركزية، يجب أن تكون برهانا قاطعا للمتلقي الخارجي لا سيما المحاجج إيمانيا على بطلان دعوة إبليس، وصوابية دعوة الحق - سبحانه - . إن كل مواصفات الصورة تُصاغ من أجل تمريرها لمن شابه إبليس قولا وفعلا، استكبارا ورفضاً لأمر الله من عالمي الإنس والجن، ولذلك فإن غايتها الوظيفية الكبرى أن تكون إنذارا بالغا للكافرين، وتثبيتا للمؤمنين على حقهم. قال القرطبي: «وذهب الطبري إلى أن الله تعالى أراد بقصة إبليس تفرّيع أشباهه من بني آدم»<sup>(89)</sup>.

#### الخاتمة:

وقف البحث على الحجج النواة المركزي الذي أراد فضح الكفر بتجلياته الباطلة، إزاء المعتقد الإيماني الذي تمظهر بصوابيته وخيريته المطلقة،

### هوامش البحث:

1. ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عامر أحمد حيدر، مادة حجج، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية
2. فؤاد كامل، وجلال العشري، وعبد الرشيد الصادق، الموسوعة الفلسفية المختصرة، لبنان، بيروت، دار القلم، ص162-165.
3. محمد العمري، مقال: البلاغة والحجاج أو بلاغة الحجاج، مجلة عالم الفكر، الكويت، 2012م، مج 40، ع4، ص267.
4. أندريه لالاند Laland ، موسوعة لالاند الفلسفية، تر خليل أحمد خليل، بيروت-باريس، ط2، 2001م، مج1، ص94-93.
5. عبد الله صولة ، الحجاج مفهومه ومجالاته، مقال: البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة أو الحجاج، الأردن عمان، عالم الكتب الحديث، ط2010، ج1، ص28. وانظر: أرسطو Aristotle، الخطابة، المغرب، الدار البيضاء ، إفريقيا الشرق، 2008م، المقالة الأولى، الفصل الأول، ص9 و16-15.
6. محمد سالم الطلبة، الحجاج مفهومه ومجالاته، مقال: مفهوم الحجاج عند بيرلمان Perelman، وتطوره في البلاغة المعاصرة، مصدر سابق، ج2، ص180.
7. عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، بيروت، لبنان، دار الفارابي، ط2، 2007م، ص27.
8. محمد سالم الطلبة، الحجاج مفهومه ومجالاته، مقال: مفهوم الحجاج عند بيرلمان Perelman، مصدر سابق، ج2، ص182.
9. المقال السابق، ص188-189.
10. أبو بكر عزوي، الحجاج مفهومه ومجالاته، مقال: الحجاج في اللغة، مصدر سابق، ج1، ص56.
11. عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، مصدر سابق، ص35.
12. انظر في السلم الحجاجي: أبو بكر العزوي، الحجاج مفهومه ومجالاته، مقال: الحجاج في اللغة، مصدر سابق، ص59-62. ومقال: عبد الهادي الشهري، آليات الحجاج وأدواته، مصدر سابق، ج1، ص95. ومقال: حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي، الكويت، عالم الفكر، 2001، مج30، ع1، ص105-107.
13. عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، مصدر سابق، ص38-39. وانظر مقالا لميشيل ماير Mayer، الحجاج مفهومه ومجالاته: اللغة والمنطق والحجاج، تر محمد أسيداه، مصدر سابق، ج5، ص31 وما بعدها.
14. علي الشبعان، الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، لبنان، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2010م، ص59، و66.
15. انظر في المفارقة بين التفسير والتأويل: نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، المغرب، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط1، 1990م، ص232 وما بعدها.
16. ليونيل بلنجر Plunger، الحجاج مفهومه ومجالاته، مقال: الآليات الحجاجية للتواصل، مصدر سابق، ج5، ص126.

17. الأعراف، الجزء 8، الآية 11.
18. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1999م، ج3، ص391.
19. الحجر، الجزء 14، الآيتان 26-27.
20. ص، الجزء 23، الآيتان 71-72.
21. الإسراء، الجزء 15، الآية 61.
22. الأعراف، الجزء 8، الآية 11.
23. الإسراء، الجزء 15، الآية 61.
24. الحجر، الجزء 14، الآية 29، و ص الجزء 23، الآية 72.
25. الأعراف، الجزء 8، الآية 11.
26. الحجر، الجزء 14، الآيتان 29-30. و ص الجزء 23، الآيتان 72-73.
27. الإسراء، الجزء 15، الآية 61.
28. الأعراف، الجزء 8، الآية 11.
29. الحجر، الجزء 14، الآية 31.
30. الإسراء، الجزء 15، الآية 61.
31. ص، الجزء 23، الآية 74.
32. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، المملكة العربية السعودية، الرياض، دار عالم الكتب، 2003م، ج1، ص294.
33. الأعراف، الجزء 8، الآية 12.
34. الحجر، الجزء 14، الآية 32.
35. ص، الجزء 23، الآية 75.
36. الإسراء، الجزء 15، الآية 61.
37. الأعراف، الجزء 8، الآية 12، و ص الجزء 23، الآية 76.
38. الحجر، الجزء 14، الآية 33.
39. الإسراء، الجزء 15، الآية 61.
40. الأعراف، الجزء 8، الآية 13.
41. الحجر الجزء 14، الآيتان 34-35.
42. ص، الجزء 23، الآية 78.
43. الأعراف، الجزء 8، الآيتان 16-18.



44. الحجر، الجزء 14، الآيات 39، و43-44.
45. الإسراء، الجزء 15، الآيات 62-63.
46. ص، الجزء 23، الآيات 82 و 85. وإذ سيتكرر عرض الآيات الكريمة، سيكون هذا التوثيق مغنيا عن الإعادة.
47. مليكة غبار، أحمد أمزيل، محمد رويض، علي أعمور، الحجاج في درس الفلسفة، المملكة المغربية، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، 2006م، ص16.
48. محمد الأمين الطلبة، الحجاج مفهومه ومجالاته، مقال: مفهوم الحجاج عند بيرلمان Perelman، مصدر سابق، ج2، ص193.
49. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، ج1، ص280.
50. المصدر السابق، ج1، ص280، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ج1، ص228، والطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، 2000م، ج1، ص456.
51. محمد بن عيسى الترمذي، صحيح سنن الترمذي، تصحيح محمد بن ناصر الألباني، المملكة العربية السعودية، الرياض، 1988م، ج3، رقم الحديث 2459.
52. انظر في أهمية كون الأحداث والشهادات حجاجية: حميد عبيدة، الحجاج في الفلسفة وفي تدريسها، مجلة فكر ونقد، المغرب، الدار البيضاء، 2001م، ع39.
53. مجموعة مؤلفين، الحجاج في درس الفلسفة، مصدر سابق، ص17.
54. المصدر السابق، ص20.
55. صلاح إسماعيل، بناء المفاهيم: دراسة معرفية ونماذج تطبيقية، مصر، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1998م، ص197 وما بعدها في قوانين الفكر الأساسية.
56. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، ج7، ص170 وما بعدها.
57. المصدر السابق، ج1، ص295. وانظر في صورة إبليس: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، ج1، ص457 وما بعدها.
58. مجموعة مؤلفين، الحجاج في درس الفلسفة، مصدر سابق، ص22.
59. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، ج1، ص170.
60. انظر ص 6 من هذا البحث، ففيه إشارات عديدة لتطوير ديكرو Ducrot السلم الحجاجي.
61. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، ج15، ص230.
62. أبو بكر العزاوي، الحجاج مفهومه ومجالاته، مقال الحجاج في اللغة، مصدر سابق، ص58-59.
63. عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، مصدر سابق، ص270 وما بعدها.
64. ليونيل بلنجر Plunger، الحجاج مفهومه ومجالاته، مقال: عدة الأدوات الحجاجية، تر فضيلة قوتال، مصدر سابق، ج5، ص151.

65. عبد الرزاق بنور، الحجاج مفهومه ومجالاته، مقال: الأطر الأيدلوجية لبعض نظريات الحجاج، مصدر سابق، ج2، ص313.
66. ميشيل ماير Mayer، الحجاج مفهومه ومجالاته، مقال: اللغة والمنطق والحجاج، تر محمد أسيداه، مصدر سابق، ج5، ص34-33.
67. عز الدي الخطابي وإدريس كثير، بلاغة السؤال وسؤال البلاغة، علامات في النقد، المملكة العربية السعودية، جدة، النادي الثقافي الأدبي 1998، مج7، ج28، ص335.
68. أرسطو Aristotle، الخطابة، مصدر سابق، ص241.
69. البقرة، الجزء الأول، الآية 34.
70. الكهف، الجزء 15، الآية 50.
71. طه، الجزء 16، الآية 116.
72. النساء، الجزء 5، الآيتان 118-119.
73. ليونيل بلنجر Plunger، الحجاج مفهومه ومجالاته، مقال: عدة الأدوات الحجاجية، مصدر سابق، ج5، ص125.
74. المقال السابق، ص122-123.
75. انظر ص 5 من هذا البحث، ففيه تفصيل عن وقوف أرسطو Aristotle على أهداف الجدل.
76. محمد الأمين طلبية، الحجاج مفهومه ومجالاته، مقال: مفهوم الحجاج عند بيرلمان Perelman، مصدر سابق، ج2 ص195-194.
77. بيرلمان وتيتكا Perelman & Tyteca، الحجاج مفهومه ومجالاته، مقدمة كتاب مصنف في الحجاج، تر: رشيد الراضي، مصدر سابق، ج5، ص69-68.
78. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، ج1، ص295. والحديث عند مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، مؤسسة الرسالة ناشرون، 2009م، ط1، برقم 244 بعنوان: باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة.
79. البقرة، الجزء 2، الآيتان 168-169.
80. البقرة الجزء 3، الآية 268.
81. آل عمران، الجزء 4، الآية 155.
82. آل عمران، الجزء 4، الآية 175.
83. المائدة الجزء 7، الآية 91.
84. الأنعام، الجزء 7، الآية 43.
85. الإسراء، الجزء 15، الآية 53.

86. طه، الجزء16، الآية 120.
87. إبراهيم، الجزء13، الآية 22.
88. الفرقان، الجزء18، الآية 9.
89. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، ج1، ص298.

### المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم
- إسماعيل بن عمرو بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1999م.
- حافظ إسماعيلي علوي «إعداد وتقديم»، الحجاج مفهومه ومجالاته:
- \* ج1: الحجاج: حدود وتعريفات.
- \* ج2: الحجاج: مدارس وأعلام.
- \* ج5: الحجاج: نصوص مترجمة.
- الأردن، عمان، عالم الكتب الحديث، ط1، 2010م.
- صلاح إسماعيل، بناء المفاهيم: دراسة معرفية ونماذج تطبيقية، مصر، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1998م.
- عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، بيروت، لبنان، دار الفارابي، ط2، 2007م.
- علي الشبعان، الحجاج والحقيقة وأفاق التأويل: بحث في الأشكال والاستراتيجيات، لبنان، بيروت، ط1، 2010م.
- فؤاد كامل وجلال العشري وعبد الرشيد الصادق «تر»، الموسوعة الفلسفية المختصرة، بيروت، لبنان، دار القلم.
- محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق هشام سمير البخاري، المملكة العربية السعودية، الرياض، دار عالم الكتب، 2003م. «نسخة الكترونية».
- محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 2000م. «نسخة الكترونية».
- محمد بن عيسى الترمذي، صحيح سنن الترمذي، تصحيح محمد بن ناصر الألباني، المملكة العربية السعودية، الرياض، ط1، 1988م.
- محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، تحقيق عامر أحمد حيدر، مراجعة عبد المنعم خليل، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية.

- مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط1، 2009م.
- مليكة غبار، وأحمد أمزيل ومحمد رويض، وعلي أعمور، الحجاج في درس الفلسفة، المملكة المغربية، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، 2006م.
- نصر حامد أبوزيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، المغرب، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط1، 1990م.

#### الكتب الأجنبية المترجمة:

- أرسطو (Aristotle)، الخطابة، تر عبد القادر قنيني، المغرب، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق 2008م.
- أندريه لالاند (Laland)، موسوعة لالاند الفلسفية، «تر» خليل أحمد خليل، بيروت – باريس، ط2، 2001م.

#### المقالات:

- عالم الفكر، الكويت، 2001م، مج 30، ع1، و 2012م، مج 40، ع4.
- علامات في النقد، تصدر عن المملكة العربية السعودية، النادي الأدبي الثقافي في جدة، 1998م، مج7، ج28.
- فكر ونقد، المغرب، الدار البيضاء، ع39، 2001م.